الاسكوريال

في صيف هذا العام أوفدت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بعثة من أساتذتها وطلبتها وخرّيجيها لزيارة معالم أسبانيا وأهم آثارها فكانت رحلة موفقة تمكنت البعثة خلالها من زيارة أهم مدنها ومعالمها ومن بينها الاسكوريال ثامن عجائب الدنيا .

ويطلق هذا الاسم على بناء مستطيل ضخم شاهق الارتفاع يضم بين جدرانه كنيسة ومكتبة وقصراً ملكيًا ومقابر للملوك وديراً ، ويتقدم هذا البناء ساحة كبيرة تتناسب مع ضخامته كما يشرف على قرية صغيرة تقع ناحية من ضواحي مدريد وتبعد عنها الى الجنوب بنحو خمسة وخمسين ميلاً ، وقد شيد الاسكوريال على السفوح الجنوبية لجبال سيرادي جوادراما وعلى ارتفاع ٣٤٣٢ قدم فوق سطح البحر .

وقد اشتق اسم الاسكوريال من الكلمة اللاتينية المقابلة لها ومعناها الخبث . ولذلك تعتبر الاسكوريال نسخة أخرى من كنيسة القديس سان لورانس التي تهدمت من قبل وأعاد بناءها فيليب الثاني ملك أسبانيا (٥٦ — ١٥٩٨) في القرن السادس عشر تخليداً لذكرى هذا القديس وذلك على أثر انتصاره على الفرنسيين وطرد جيشهم في موقعة سانت كونتين في ١٠ من أغسطس عام ١٥٥٧ .

واستغرق بناء الاسكوريال نحو سبعة عشر عاماً ويشغل ساحة قدرها ٣٩٦٧٨٢ قدماً ويشتمل على سبعة أبراج وخمسة عشر مدخلاً وما لا يقل عن ١٢٠٠٠ نافذة وباب .

١ — ﴿ الكنيسة ﴾ : أهم المباني وأرفعها منزلة يجمع اليها الاسبانيون من آن لآخر لملوكها كما أنها إحدى كنائس أوربا العامة التي ترجع إلى عصر النهضة . وتبلغ مساحتها ٧٠٠٠ قدم تتوسطها أربعة دعائم ضخمة شيدت عليها قبة ترتفع قمتها ٣٢٠ قدماً ويتصدر القبة المكان المقدس (المذبح) ويصعد إليه بنحو ست عشرة درجة وهو من عمل أحد مشاهير الرسامين البلجيكيين ويقدر ثمنه بنحو ثمانية ملايين من الجنيهات .

٢ — ﴿ المكتبة ﴾ : تقع فوق الايوان الرئيسي للكنيسة وهي من أشهر ، بل من أعظم مكاتب العالم لما تحتويه من مخطوطات قديمة ثمينة ، كان بعضها ملكاً خاصًا للملوك

الاسبان والبعض الآخر وصل إليها عقب انتصارهم على سلطان المغرب مولى زيدان (١٦٠٣ ـ ١٦٢٨) فحفظ بها مخطوطات الكنائس والأديرة العديدة حتى لا تصل اليها يد العابثين من الثوار وقت الاضطرابات التي تعرضت لها اسبانيا في العصور السالفة وبها أقدم مجموعة من المخطوطات العربية والعبرية واليونانية واللاتينية البالغ عددها ٤٠٠٠٠ مخطوط منها كتابان مقدسان يرجعان إلى القرن العاشر ، وأخريان إلى القرن الحادي عشر كما حفظ بها بعض أعمال الفونسو الحكيم (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) ومصحف من القرن الثالث عشر زخرفت هوامشه وفواصله بألوان زاهية لا زالت محتفظة بجمالها إلى اليوم . ويدل تسامحهم الديني على عرض هذه الكتب المقدسة بجانب بعضها في قاعة واحدة ، بل وعلى منضدة واحدة ، كما عرض على إحدى هذه المناضد كتاب « الثوار المطاع » وهو كتاب قصصي تاريخي مزين بالصور التوضيحية ويرجع تاريخه إلى عام ١١٧٦ . وزخرفت هذه القاعة وسقف المقبرة برسوم الفرسكو لافضل الفنانين الاسبان .

٣ — ﴿ المدافن الملكية ﴾ : خصص الطابق الأول من هذا القسم للمدافن الملكية فأقيم تحت مذبح الكنيسة حجرة مثمنة خصصت لدفن الملوك والملكات يمكن الوصول إليها من داخل الكنيسة أو من خارجها . يتصدر هذه الحجرة المثمنة المسيح واضعاً من يمينه ومن يساره ستة وعشرون تابوتاً من الخشب النفيس المطعم بالعاج والأحجار الكريمة لا يزال ثلاثة منها خالية تنتظر رفات من يوافيه القدر .

وتؤدي هذه الحجرة إلى دهليز يوصل إلى حجرة صغيرة خصصت لدفن باقي أفراد العائلة المالكة من الأمراء والنبلاء وهي مقابر من المرمر أو الرخام البديع الصنع يعلو بعضها قبائل لاصحابها على وسائد يحسبها الرائي وسائد من ريش النعام كما نقشت عليها لفتة تاريخية مع شارته الملكية . وينتهي هذا الدهليز بحجرة صغيرة يتوسطها مقابر صغيرة على شكل دائرة خصصت للاطفال الامراء دون من السابعة من أبناء الملوك ولذلك تسمى هذه الحجرة بحجرة الامراء .

٤ — ﴿ القصر ﴾ . بنى فيليب الثاني عن الدنيا وزهد في الملك فأراد أن يتقرب الى الله بروح خالصة فبنى له بجوار بيت الله قصراً متواضعاً بعيداً عن أبهة الملك وجلاله وزوده بالقليل من الرياش والأثاث وزينه بالرسوم فجاء آية من الجمال الفني وفي غاية الروعة طليت جدرانه وسقوفه بأبدع ما أنتجه الفنانون الاسبان والبلجيك من رسوم الفريسكو أمثال بلجرينو ، وبارتلوميو ، ولويس دي كاربجال ، وتيبالدي ، وتيبان ، وتنتوريتو ، والجريكو وجوردانو وروبينو وكانون وبن فولتيني وشيلي . كما غطى بعض جدرانها بالمجاجيد

المكتبة في قصر الأسكوريال

الفاخرة نسجت خيوطها من أسلاك ذهبية وحريرية في المصانع الملكية عليها رسوم دينية واجتماعية زاهية اللون كسجاجيد حجرة الاستقبال من رسم جويا . وزوّدت هذه الابهاء بالستر النفيسة والثريات الرائعة . وروعي أن يسود بعض هذه الابهاء لون واحد كالأخضر أو الأصفر أو الأحمر وعرفت بعض الصالات بهذه الأسماء .

وتتوسط هذه القاعات قاعة العرش تتصدرها منصة مرتفعة تعلو عن الأرضية بدرجتين وأقيم عليها كرسي العرش لجلوس الملك ، أما الملكة فخصص لها كرسي بجوار الحاشية على خلاف العروش الأوربية الأخرى حيث تجلس الملكة بجوار الملك على منصة واحدة .

يجاور قاعة العرش قاعة أخرى من رسم الرسام البلجيكي روبينز ، ثم يليها قاعة الشهداء وأخرى لمكتبه الخاص صنعت من خشب العود الخالص وغيرها لعبادته من خشب الأبنوس رسم رسومها الرسام بن فولتيني ، أما حجرة السيد فن طراز بومبي . وهناك قاعة طويلة زين جانب منها بالفريسكو برسوم تمثل المواقع الحربية التي وقعت بين جون النمسوي وفيليب الثاني أثناء القرن السادس عشر .

وقد تعوّد الملوك الذين تعاقبوا بعد فيليب الثاني على اسبانيا أن يتحفوا من هذا القصر حجراً خاصة لهم فجلوها ببعض التعديل .

هذا في الطابق الثاني ، أما الطابق الأول فقد خصص لسكن فيليب الثاني ولم يقطنه أحد سواه سوى ابنه منذ القرن السادس عشر . ولذلك لا تزال حجراته محتفظة بطابعها القديم وفرشها وأثاثها بنظامها الذي كان أيام فيليب ومن بينها حجرة نومه وسريره الذي فاضت عليه روحه في ١٣ سبتمبر سنة ١٥٩٨

أما باقي بناء الاسكوريال فقد خصص لسكن الرهبان الذين يشرفون عليه . ولا يزال الأسبان يعتدون بهذا الأثر الجليل ويحيطونه بكل روعة وجمال وداًبوا على المحافظة عليه رغم الحوادث التي توالت عليه وما تعرض له من دمار بعض أجزاءه عقب الحريق العظيم عام ١٦٧١ ولم ينجُ منه إلاّ الكنيسة وجزء من القصر وبرجان ، كما تعرّض البناء جميعه لانتقام الفرنسيين ١٨٠٨

ويقصد الاسكوريال من آن لآخر كثير من المشتغلين بالفن والآثار ودراسة المخطوطات القديمة .

محمد سعيد العريان